بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: ٩٧ **الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق**

الدرس: تفسير القرآن الكريم **المبحث: سورة الإنسان**

التاريخ: ٣٠/ ١٠/٢٠٢٤م **كتبه: عبدالله ضيف الستري**

وصلنا إلى الآية السادسة والعشرين، قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾.

تقدم شطر من الكلام المرتبط بهذه الآية عند بحثنا عن تفسير الآية السابقة، الشيء المهم في هذه الآية المباركة يرجع إلى ثلاث نقاط:

النقطة الأولى: معنى الآية الأولي

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ ف﴿مِنَ﴾ هنا للتبعيض، فيكون المعنى فاسجد لله تعالى بعضاً من الليل وجزءاً من الليل.

﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ أي اذكر الله تبارك وتعالى في مدة طويلة من هذا الليل.

البعض هنا يرى أن قوله ﴿طويلا﴾ ليست صفة لليل، وإنما هي صفة لشيء محذوف، وهو لمفعول مطلق محذوف، وسبحه ليلاً تسبيحاً طويلاً. لكن لا داعي لهذا التقدير الذي لا يوجد قرينة تدل عليه.

فإذا ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ﴾ إشارة إلى صلاة الفريضة، والتي تقع في الجزء الأول من الليل ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ إشارة إلى التهجد في الليل، والذي منه ما يسمى بصلاة الليل.

إذاً الآية البدوي في غاية الوضوح.

النقطة الثانية: اختلاف التعبير بين مختلف الصلوات

ولم أر بحدود تتبعي من تعرض لها من المفسرين. عرفنا بالنسبة لصلاة النهار –التي هي صلاة الصبح وصلاة الظهر والعصر– عبرت الآية السابقة بالذكر ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ وبالنسبة للفريضة الليلية عبرت عنها هذه الآية التي نبحث عنها بالسجود فقالت: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ﴾ وبالنسبة

للصلاة المرتبطة بالتهجد عبرت الآية بالتسبيح، فهل هذا الاختلاف في التعبير مجرد تفنن في الكلام وليس له مدلول آخر أم لا؟

كثير من علماء البلاغة في كثير من الآيات يذكرون أن تغيير الأسلوب إلى التفنن في العبارة، وهذا باعتقادي لا يكفي في إبراز بلاغة القرآن الكريم الذي بها كان إعجازاً؛ إذ التعليل بالتفنن في العبارة لا يقطع السؤال، فنقول لماذا لم يعكس الأمر؟ عن صلاة النهار عبر بالتسبيح وعن صلاة فريضة الليل عبر بالذكر وعن التهجد عبر بالسجود، وهذا فيه تفنن أيضاً. فهذا الجواب لا يشبع غريزة البحث عند الباحث في القرآن الكريم.

لم أجد من وجه هذا الأمر، باعتقادي يمكن توجيهه -بحسب ما يصل إليه ذهني القاصر- بالنسبة لصلاة النهار، أي الإنسان يصلي في فترة طلب المعاش والاحتكاك بالمجتمع والتجارة والمعاملة والأخذ والرد والطلب والرفض والخصومة والموافقة، صلاة النهار تصليها في هذه الظروف، في الصباح يذهب كل واحد منا إلى ما يطلبه من معاش ومن علم ومن عمل، ثم يتابع معاشرة الناس إلى الليل، فهذا الوقت يكون الإنسان فيه في معرض مخالفة حدود الله تبارك وتعالى، فيحتاج إلى تذكر ورفع للغفلة، فعبرت الآية عن الصلاة في تلك الفترة بأنها رافعة للغفلة وأنها تذكر؛ لأن الذنوب في الأعم الأغلب تكثر في النهار، عند السكوت فلا يقع الإنسان في غيبة ولا نميمة ولا بهتان ولا كذب ولا استهزاء، فبالسكوت الذنوب اللسانية تحفظ. إذا لم أتعامل مع الناس فكثير من الذنوب لا تحصل، لا يحصل غش، لا يحصل غبن، لا يحصل سرقة، وهكذا. لكن فترة اليوم وفترة النهار الإنسان يكون في معرض هذه الذنوب، فيحتاج إلى ما يذكره، فكانت الصلاة تذكيراً، فعبرت الآية بقوله: ﴿وَاذْكُرِ﴾.

ثم عندما جاء أول الليل، بعد هذا التعب والأخذ والرد في المجتمع وطلب الرزق، احتجنا إلى شكر وخضوع في محضر الله سبحانه وتعالى، فعبرت الآية بقوله: ﴿فَاسْجُدْ﴾.

بعد النوم والاستيقاظ للتهجد، هنا نحتاج إلى إبراز جلال الله تبارك وتعالى فعبرت الآية بقوله: ﴿وَسَبِّحْهُ﴾ فكان التسبيح وتنزيه الله سبحانه وتعالى عن النقص، الإنسان في خلوته وفي انقطاعه بينه وبين الله سبحانه وتعالى أفضل شيء يقوم به أن ينزهه وأن يجله عن النقص، فعبر عنه تلك الفترة العبادية بالتسبيح والذي هي تنزيه وإجلال وتعظيم لله تبارك وتعالى.

ما وصل إليه ذهني القاصر في هذا الاختلاف في التعبير بين صلاة النهار وصلاة الليل فريضة وتهجداً.

النقطة الثالثة: النكات السياقية

ما دأبت عليه في البحث التفسيري من الالتفات إلى النكات السياقية، وذكرنا سابقاً في تفسير سورة لقمان، حيث ركزنا كثيراً على هذا الأمر، وهو أن الكثير من المفسرين يفسرون تفسيراً تجزيئياً، أي نحن وهذه الآية ولا علاقة مع الآيات الأخرى.

لكن البحث السياقي في قرآن الكريم في غاية الأهمية، نلاحظ في هذا المقطع الذي بدأنا به قبل فترة، الذي ابتدأ من قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً (٢٤) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾.

في الواقع خاتمة هذا المقطع ترتبط ارتباطاً وثيقاً بزاد الإنسان، الزاد الذي يحمله إلى ربه تبارك وتعالى، هو أن يكون ذاكراً له في صباحه ومسائه، خاضعاً له خاشعاً في ليله، مسبحا له في خلوته، هذا هو الزاد الحقيقي للإنسان.

هذه الآيات هي خطاب ابتدائي للرسول ﷺ، هذا القرآن الذي نزلناه عليك بحاجة إلى الإبلاغ، بحاجة نشر، بحاجة إلى تطبيق، وفي طريقك في هذا العمل بحاجة إلى الاستعانة بالصبر ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وبحاجة إلى مواجهة الأغيار الذين يصدون عن سبيل الله ﴿وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾ لكن الشيء المهم الذي ينبغي أن تستعين به مضافاً إلى الصبر فعليك أن تستعين بالصلاة، وفصّل في هذه الصلاة.

فيكون مجموع هذه الآيات نظير الآيتين الواردتين في سورة البقرة ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخاشِعِينَ﴾[1] وفي آية أخرى ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[2].

فنزلنا عليك القرآن الكريم لتنشره ولتطبق تعاليم الباري تبارك وتعالى في هذه الأرض، لكن هذا لتعاليم الله تبارك وتعالى فيه موانع فهناك أعداء وهناك مشركون وهناك كفار يحاربونك وهناك من يقف

[1] البقرة: ٤٥
[2] البقرة: ١٣٥

في طريقك، فتحتاج إلى قدرة على التحمل في مبارزة هؤلاء، وتحتاج إلى أن ترتبط بربك بصلة من الصلاة، وهذه الصلة هي الصلاة، فقالت: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً (٢٤) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ فكأنه قال: استعن بالصبر والصلاة.

إذاً هناك تناسق متكامل بين آيات هذا المقطع، لا أنها آيات متبعثرة وعشوائية، يا أيها النبي ﷺ هذا القرآن الكريم هو وسيلتك في إقامة القسط في هذه الأرض، لكن هناك أعداء وهناك موانع وهناك من يقف لك في الطريق، فلا تنكسر ولا تخضع أمامه؛ لأننا أعطيناك وسيلتين، وسيلة الصبر والقدرة على التحمل، ووسيلة الارتباط بالقوى العظمى في الوجود، هذه الوسيلة هي الصلاة. فحينئذ لا تخف في طريق تبليغك لأحكام الله سبحانه وتعالى.

وهذا خطاب وإن كان للنبي الأعظم ﷺ أولاً وبالذات، لكن هو كلام لنا ولكل الذين يبلغون رسالات ربهم تبارك وتعالى، هناك شيطان يقف في الطريق وهناك أعداء يوسوس لهم هذا الشيطان، إذا لم يتحلى الإنسان بهذين الركنين فسرعان ما يتوقف في أثناء الطريق، وقد تجرفه سيول الأعداء معهم، فلا يبقى مستقيماً على الجادة.

هذه رسالة لكل إنسان يحمل رسالة هذه الدنيا.